مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية

المجلد (09) العدد (04) السنة (2022)

الصفحة 231-248

صورة الدولة العثمانية في الشعر الجزائري

الجزائري دراسة في شعر ما بعد سقوط إيالة الجزائر

The image of the Ottoman Empire in Algerian poetry A study in poetry after The fall of the Eyalet of Algeria

مباركة مسعودي

جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)، messmeb8@gmail.com

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 12 /2023/02
تاريخ القبول:2023/12/20

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء صورة الدولة العثمانية في الشعر الجزائري الذي كتب بعد سقوط إيالة الجزائر، كما تبحث عن نظرة الشاعر الجزائري للدولة العثمانية في تلك الفترة الحسّاسة من تاريخه.

وخلصت صفحات هذا المقال إلى أن الشاعر الجزائري بعد الاحتلال الفرنسي بقي وفيًا للدولة العثمانية، إذ كتب عنها، مصورًا حروبها، ومادحا سلاطينها حتى سقوطها.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجزائريّ؛ الدولة العثمانيّة؛ إيالة الجزائر؛ صورة الدولة العثمانيّة.

ABSTRACT

This study aims to know the image of the Ottoman Empire in the Algerian poetry that was written after the fall of the Eyalet of Algeria, and it searches for the Algerian poet's view of the Ottoman Empire in that sensitive period of his history.

He wrote about it, portrayed its wars, and praised its sultans, and remained so until the official fall of the caliphate.

Keywords: Algerian poetry; Ottoman Empire; the Eyalet of Algiers; Image of the Ottoman Empire.

1. مقدمة:

عاشت الجزائر بعد سقوط غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس ظروفًا سياسيّة صعبة، إذ استطاع الجيش الإسباني احتلال معظم السواحل الجزائرية، وسيطر بصفة خاصّة على مدينة الجزائر، وقمع سكانها وفرض عليهم الضرائب الجائرة، وهو ما دفع بسكان المدينة وأعيانها إلى الاستعانة بالدولة العثمانية.

تميّز الدخول العثماني للجزائر بخاصّية متفردة، فلم يكن دخولاً دمويًا متسلطًا، بل كان برضى أهالي مدينة الجزائر الذين طلبوا المساعدة من الدولة العثمانية التي استجابت ونجحت في طرد المحتل الإسباني الذي كان مسيطرًا على معظم الثغور الجزائرية، وهكذا انعقد عقد معنوي بين الطرفين، واستمر متوهجًا طيلة هذا العهد، فكلما حل بالبلاد طارئ تجتمع القبائل الجزائرية تحت قيادة الجيش العثماني لرد الأعداء عن أراضي الغرب الإسلامي.

ونتيجة لهذه الظروف الخاصّة، شهدت الجزائر طيلة العهد العثماني الكثير من الحروب التي خاضها الجيش العثماني على هذه الأرض، وقد واكب الشعر الجزائري هذه الحركة، وصوّر معظم الحروب والحملات البحرية التي خاضتها الأساطيل الأوروبية ضد الإيالة الجزائرية، وكان آخرها حملة الجيش الفرنسي التي نجحت في احتلال المدينة، ونقل هذا الشعر صور المعارك والمقاومات، وصوّر لنا مختلف الانفعالات والاختلاجات.

وبعد سقوط الإيالة عاشت الجزائر ظروفًا جديدة، فقد تمكن الاحتلال الفرنسي من بسط نفوذه على معظم المدن الجزائرية, وأذاق أهلها مختلف أصناف العذاب والتهجير والتقتيل، وواكب الشعر الجزائري هذه الأحداث، واستمر يكتب عن سقوط المدينة وتبدّل أحوالها، وتراجع نفوذها، كما انبرى رجال الحملة الفرنسية لانجاز التقارير والمقالات التي راحت تنقب عن الآثار الرومانية، وتركز في الوقت نفسه على سلبيات الفترة العثمانية حتى تبرّر استعمارها للجزائر.

انطلاقا من هذا الطرح سنحاول من خلال هذه الدراسة الإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها: هل كتب الشاعر الجزائري عن الدولة العثمانية بعد سقوط إيالة الجزائر؟، وكيف تجلت صورة الدولة العثمانية في هذا الشعر؟، وكيف عبّر الشاعر الجزائري عن نظرته للدولة العثمانية في تلك الفترة الحساسة من تاريخه؟، وما هي الصورة التي رسمت بها الدولة العثمانية قبل سيطرة الأيديولوجيا الاستعمارية على الفكر والثقافة؟، وهل استجابت هذه الصورة لوجهة نظر المدرسة التاريخية الفرنسية للدولة العثمانية؟.

بناء على كل ذلك يحاول هذا البحث استجلاء نظرة الشاعر الجزائري للدولة العثمانية في خضم كل تلك التغيرات السياسية التي حلّت بالبلاد، ويحاول الإجابة عن التساؤلات المطروحة من خلال صياغة الفرضيات الآتية:

أ- لم تتأثر صورة الدولة العثمانية في الشعر الجزائري بعد الاحتلال الفرنسي رغم اكراهات السلطة الاستعمارية.

ب- تفاعل النخب الجزائرية مع أطروحات المدرسة التاريخية الفرنسية كان ضعيفا.

ج- استمر التواصل الجزائري العثماني بعد سقوط إيالة الجزائر وكتب الكثير من الشعراء الجزائريين عن الدولة العثمانية .

د- واكب الشاعر الجزائري بعد سقوط إيالة الجزائر أحداث الدولة العثمانية وكتب عن حروبها ومدح سلاطينها.

تهدف هذه الدراسة إلى تقصي صورة الدولة العثمانية في الشعر الجزائري الذي كتب بعد سقوط إيالة الجزائر، وتبحث عن نظرة الشاعر الجزائري الدولة العثمانية في تلك الفترة الحساسة من تاريخه، وينطلق من عرض موجز عن بدايات تشكل إيالة الجزائر، ثم ينتقل إلى استجلاء هذه الصورة من خلال نماذج من الشعر الجزائري.

انطلقت هذه الدراسة من مقدمة تاريخية بينت الظروف السياسية التي رافقت تشكل إيالة الجزائر وبداية التواصل الجزائري العثماني، ثم عرجت إلى تفصيل التاريخ السياسي والاجتماعي لإيالة الجزائر، وتطرقت بعدها إلى صورة الدولة العثمانية في الشعر الذي كتب بعد سقوط مدينة الجزائر، وتتبعت تلك الظاهرة التي استمرت حتى سقوط الدولة العثمانية، وانتهت بخاتمة أكدت عمق العلاقة الجزائرية العثمانية التي تشكلت في إطار الجهاد ورد الهجمات الصليبية، واستمرت قائمة حتى خروج العثمانيين من الجزائر رسميا.

2. الجزائر إبان التواجد العثماني:

بدأت العلاقات الجزائرية العثمانية في خضم ظروف سياسية مضطربة، فقد كان البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر حلبة لصراع عثماني / اسباني، والذي زادت حدته بعد سقوط الأندلس وتبني السلطة الاسبانية لسياسة التوسع على حساب السواحل الإفريقية، حيث احتل الإسبان معظم السواحل الجزائرية، منها مدينة الجزائر التي وقّعت سنة 1509م "اتفاقية الاعتراف بسيادة فيرديناند الكاثوليكي، ... أرسل الجزائريون وفدا لزيارة القائد الإسباني بدرو نافارو **pedro Navarro** في بجاية وقبلوا دفع ضريبة سنوية، كما تخلوا لإسبانيا عن إحدى الجزر الصغيرة التي تحمي الميناء، كما بنى نافارو على تلك الجزيرة قلعة أطلق عليها اسم البنيون **penon**" (سبنسر، 2006، صفحة 35)، وخلال هذه الفترة توجّه الإخوة بربروس إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، واتصلوا بالسلطان الحفصي في تونس، ثم ذاع صيتهم في كلّ الشمال الإفريقي، فتوجهت مجموعة من سكان بجاية سنة 1512م إلى عروج وطلبوا منه مساعدتهم على طرد الإسبان واستعادة مدينتهم المحتلة (عباد، 2013، صفحة 68). ونجح في ذلك بعد عدة محاولات، وانظم إليه فيها قرابة عشرين ألف متطوع من الأهالي (التر، 1989، الصفحات 47-48).

في الفترة نفسها كانت مدينة الجزائر تخضع لسيطرة القوات الاسبانية، فقد بنى نافارو قلعة على صخرة البينيون وكان يوجه منها ضربات مدافعه على المدينة، حتى اضطر حاكمها سالم التومي إلى عقد هدنة مع ملك إسبانيا لمدة عشرة سنوات (كربخال، 1984، صفحة 346).

في ضل هذه الظروف ضاق تجار المدينة وأعيانها ذرعًا من القلعة الاسبانية التي أثّرت على تجارتهم، فتوجهوا إلى عروج وطلبوا منه التدخل لتخليصهم من الحامية الإسبانية، حتى يضعوا حداً للضرائب السنوية المسلطة عليهم (سبنسر، 2006، صفحة 39).

أرسل الأهالي وفدا يترأسه أحمد بن القاضي إلى الريّس عروج، وطلبوا منه مساعدتهم، جمع عروج قواته، و"حمل ست عشر سفينة بالمدفعية والذخيرة، وأرسلها مع نصف جنوده بحرًا، أما النصف المتبقي والبالغ عدده 800 رفيقا

(يولداش) فتوجهوا بقيادته برًا إلى مدينة الجزائر وفي الطريق انظم إليه 5000 شخص من القبائل" (التر، 1989، صفحة 51).

دخل عروج المدينة وبدأ ي قصف القلعة، كما أنه حاول تنظيم أمور الجيش، وتقسيم المهام بين الأتراك والقبائل المحلية، وتحولت الخزينة العامة إلى دفع أجور جنوده، لكن ابن التومي شعر بالخوف على ملكه، فلجأ إلى سهل متيجة طالبًا عون قبيلته، لكن عروج قام بخداعه واستدرجه مرة أخرى إلى المدينة، ثم شنقه بقماش عمامته (سبنسر، 2006، صفحة 41) .

وفي الفترة نفسها قصد سكان تلمسان الريس عروج، يستنجدونه ضد سلطانهم أبي حمو الثالث، وقصد عروج تلمسان برا وترك خير الدين في مدينة الجزائر (الميلي، 1964، صفحة 47)، أما أبو حمو فقد لجأ إلى الإسبان وعاد برفقة حوالي عشرة آلاف جندي إلى وهران (عباد، 2013، صفحة 75) .

ونجح في القضاء على الحامية التي تركها عروج في قلعة بني راشد بعد أن قتل قائدها إسحاق بربروس سنة 1518م في تلمسان (عباد، 2013، صفحة 76)، ثم ضرب حصاره على المدينة لمدة ستة أشهر حتى استسلمت له، وحاول عروج الفرار لكنهم أمسكوا به وقتلوه قرب واد المالح (سبنسر، 2006، صفحة 49).

بعد هذه الحوادث قرر خير الدين الخروج من الجزائر ليستأنف عمله في القرصنة، لكن رجاله أقنعوه بالبقاء ومحاربة الإسبان (سبنسر، 2006، صفحة 47)، كما أن أهالي المدينة وأعيانها طلبوا منه مساعدتهم وعينوه حاكما عليهم.

حاول خير الدين ربط مصير الجزائر بالدولة العثمانية حتى يضمن المدد والحماية، وهو ما وافق عليه سكان المدينة، وشكلوا وفدا ترأسه كاهية خير الدين السيد حاجي حسين، وتوجهوا إلى القسطنطينية بطلب الانضمام إلى الإمبراطورية العثمانية، وفي اسطنبول استقبلهم السلطان العثماني سليم الأول، وسلمهم فرمان ورد فيه تعيين خير الدين بربروس بايلرباي على الجزائر (بربروس، 2010، صفحة 96) ثم سلّمه سيفًا مرصعًا، وخلعة مذهّبة، وراية الإمارة كما سلّمه فرمانًا(تعليمة) يقضي بدعم وحماية الجزائر من قبل الإمبراطوريّة العثمانيّة، ويسمح بتقديم الخطبة وسك العملة باسم السلطان (عباد، 2013، صفحة 78)، وفي الزيارة نفسها أمر السلطان بفتح باب التطوع للجهاد بالجزائر، وفي ظل هذه الظروف تأسست إيالة الجزائر، وتمكن خير الدين بربروس من حمايتها وإقامة القوانين العثمانية بها.

وتقسّم فترة الحكم العثماني إلى أربعة:

عصر البايلرباي: 1518-1588م والتي بدأت بدخول عرّوج إلى الجزائر سنة 1518م، وبعد استشهاده خلفه أخوه خير الدين، والذي قام بضم الجزائر رسميا إلى الدولة العثمانية سنة 1518م (السليماني، 1993، صفحة 10)، بنت إيالة الجزائر في هذه الفترة قوتها البريّة والبحريّة، وعُدّت هذه الفترة من أقوى عصور الحكم التركي في الجزائر، فقد ازدهرت البلاد كثيرا وخاصة في الجوانب التعليميّة والاقتصاديّة والعمرانيّة، وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس في القيادة وأبناء الجزائر (بوحوش، 1997، صفحة 61).

عصر الباشاوات: بعد انتهاء ولاية البايلرباي حسن فنزيانو عام 1587م، قامت حكومة الباب العالي بتغيير نمط الحكم في الجزائر، وقررت إرسال باشاوات من اسطنبول، مدة حكم كل واحد منهم لا تتجاوز الثلاث سنوات،

وعيّنت بعد هذا القرار أحمد باشا واليًا جديدًا (سهيل، 2010، صفحة 145)، كما قررت الحد من امتيازات الحاكم وتغيير لقبه إلى الباشا (بوعزيز، 2009، صفحة 33)، وعرف هذا العهد بازدهار القوة البحرية الجزائرية (الميلي، 1964، صفحة 138).

عصر الأغوات: بدأت هذه الفترة بسلسلة من الاضطرابات، فقد سادت الفوضى من قبل رياس البحر وجنود الانكشارية، بعد أن حرمهم الباشا إبراهيم من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي (بوعزيز، 2009، صفحة 42)، استغل جنود الانكشارية هذه الفرصة وقاموا بالانقلاب على طائفة رياس البحر، وتميزت هذه الفترة بمحاولات مستمرة لفصل الجزائر عن الدولة العثمانية، ونجح الآغاوات في فرض تغيير طفيف سمح لهم بنوع من الاستقلال عن الدولة العثمانية (غلاب، 2005، صفحة 344).

عصر الدايات: بنت الإيالة في هذا العصر جيشا قويا، وكان لها ميزانية مستقلة، كما كان الداي يعقد الاتفاقيات مع الممالك والدول باسم الجزائر، كما كان يبعث القناصل باسم الإيالة إلى الدول الكبرى (بوحوش، 1997، صفحة 62)، كما أصبحت "العلاقة بين الجزائر والباب العالي علاقة السيّد بالسيّد فكانت الجزائر كلما تعين داي جديد تبعث لإسطنبول رسولا يأتي بالفرمان وتبعث معه هدية وكان ثمن هذه الهدية لا يتجاوز قيمة 250 قنطار من القمح وبالمقابل يقدم الباب العالي للإيالة في كل مرة مساعدة من العتاد الحربي والمراكب الجاهزة..." (الزبيري، 1985، صفحة 60).

وقسمت إيالة الجزائر خلال الحكم العثماني إلى:

دار السلطان: وهي المناطق الموصولة مباشرة بالداي، وتشتمل جغرافيا على خمسة مدن هي: الجزائر، البليدة، القليعة، شرشال، ودلّس.

بايلك التيطري: عاصمته المدية، وباي التيطري هو أول البايات في نظام التشريفات، لكنه أقلهم شأنا من حيث الأهمية السياسية والاقتصادية التي تكتسيها المنطقة التابعة له.

بايلك الغرب: عاصمته معسكر ثم وهران بعد تحريرها، يتميز بالطابع العسكري نظرا للمنافسات والحروب التي وقعت بين الأتراك وسلاطين المغرب الأقصى، إضافة إلى الدفاع العسكري المحكم ضد القاعدة العسكرية الإسبانية التي استمرت حتى تحرير وهران سنة 1791م.

بايلك الشرق: عاصمته قسنطينة، وهو من أهم البايلكات سواء من حيث عمقه الجنوبي أو مساحته أو ثرواته، لعب هذا البايلك دورا كبيرا في مراقبة إيالة تونس وساهم في إخضاعها لنفوذ أتراك الجزائر (عباد، 2013، صفحة 445).

كان سكان الإيالة خليط من العرب والبربر وبقايا الأجناس التي سكنت البلاد عبر العصور، والأتراك والمهاجرين الأندلسيين (شالر، 1982، صفحة 79)، وقد أثرت العديد من العوامل في الحياة الاجتماعية والثقافية في

الإيالة، ومنها خاصّة الوجود المسيحي، واليهودي، وهجرة الأندلسيين خلال القرن التاسع هجري، وأهمّها الوجود العثماني نفسه (سعد الله، 2007، الصفحات 148-150)؛ وساعدت كل هذه الظروف في تنوع التركيبة البشرية:

الأتراك: شكل الأتراك في الجزائر طائفة منغلقة ومنعزلة عن المجتمع الجزائري، حيث حافظوا على لغتهم التركية ومذهبهم الحنفي، كما كانوا يخضعون لنظام قضائي خاص ولهم امتيازات خاصة (عباد، 2013، صفحة 547)، وهم يحتلون عادة قمة الهرم الاجتماعي، مثل البايات والباشاوات، والأغوات وأعضاء الديوان وفرق الجند "الإنكشارية" الذين كانوا يقيمون في حصون وثكنات المدينة (سعيدوني و بوعبدلي، 1984، صفحة 93).

الكراغلة: وهم المولَّدون نتيجة التزاوج بين الجند العثماني والنساء الجزائريات، وكانوا يطمحون (بالميلاد واللغة والانتماء العائلي) للارتقاء إلى المرتبة الأولى في المجتمع، لكن العثمانيين رفضوا ذلك، لأن تمكين الكراغلة من مناصب الدولة كان يشكل خطرا على مصالحهم (سعد الله، 2007، صفحة 155)، شكّل الكراغلة طبقة وسطى مارست العديد من الوظائف كالتجارة والمهام الإدارية المتوسطة، كما انخرطوا في ما بعد في صفوف الجيش الإنكشاري، وتولوا بعض المناصب المهمة قليلا مثل منصب الباي كأحمد باي قسنطينة، ومُحَمَّد الذباح باي التيطري (عباد، 2013، صفحة 549).

طائفة الحَضَر: يمثلها سكان المدن، بما في ذلك المهاجرون الأندلسيون الذين استوطنوا الجزائر وساهموا في الحياة الاجتماعية بنشر أنماط حضارتهم بين الجزائريين، كما ساعدوا في الكفاح ضد الإسبان في البحر (سعد الله، 2007، صفحة 148)، وكل من استوطن المدن من أهل البادية، وتضم هذه الفئة العلماء والتجار وأصحاب الحرف والصنائع والكتاب والإداريين (سعد الله، 2007، صفحة 155).

طائفة البراني: هم القادمون من الريف بحثا عن العمل بمدينة الجزائر، وهم معروفون فيها باسم القبيلة أو الجهة التي جاءوا منها، وهم القبائليون والمزابيون والأغواطيون، تخصّص بني ميزاب بالعمل في الأفران، وقد استأثروا بهذا النشاط طيلة العهد العثماني كله، كما احتكروا النظارة على الحمامات والجزارة أو القصابة (غطاس، 2007، صفحة 284)، أما جماعة الجيجلية فكانت تشرف على أفران البايليك المخصصة لإعداد الخبز لليولداش والأرقاء، كما مارس القبائل نشاطات تجارية وحرفية مثل العمل في ورشات النجارة ودار الصابون، كما قاموا ببيع الأعشاب ومنتجات الحليب والزيت، كما استخدمهم البلدية والقناصل في الخدمات المنزلية (غطاس، 2007، صفحة 249)، واحتكر البسكريون صناعة الخبز وحمله، كما استخدمتهم الحكومة في انجاز الأشغال العمومية، ومراقبة الشوارع والأبواب الداخلية في الليل (شالر، 1982، صفحة 111).

الدخلاء: هم العبيد السود والأسرى المسيحيون واليهود، إضافة إلى المسيحيون الأحرار كالقناصل والسفراء، كان يتم جلب العبيد السود من إفريقيا، أما المسيحيون الأحرار فقد كان عددهم قليلا، وكانوا عادة من التجار الذين يعودون إلى بلدانهم فور انتهاء أعمالهم، إضافة إلى القناصل وأعوانهم (عباد، 2013، صفحة 553).

أما اليهود فهم من أقدم العناصر الدخيلة في مدينة الجزائر، قدر عددهم بحوالي 2000 يهوديا، تركزت تجارتهم على الغنائم التي كان ريّاس البحر يحضرونها، فقد كان اليهود يتعهدون بتصريفها في أسواق إيطاليا وإنكلترا والنمسا نظراً

لاستحالة ذلك في أسواق الجزائر وحدها (عباد، 2013، صفحة 553)، وبالرغم من المكانة الاقتصادية التي كان يتمتع بها اليهود إلا أنهم كانوا يقطنون في أحياء خاصة بهم، فقد سمح لهم بفتح بعض الدكاكين، لكنهم أجبروا على ارتداء لون خاص من اللباس يميزهم عن غيرهم من السكان (التر، 1989، صفحة 146)، وهو اللون الأسود، كما فرضت على كل واحد منهم ضريبة قدرت بريالين في الشهر (هابنسترايت، 2007، صفحة 33).

عرفت الدولة العثمانية باتساع رقعتها وبضمها لمخلف الأعراق والأجناس والأديان، وعملت هذه الدولة على توحيد كل هذه الملل ضمن لوائها، لذلك نظمت أحوالها الإدارية والاجتماعية ضمن قوانين معينة، منها ما سُن لتنظيم أحوال السلطة المركزية في الأستانة، ومنها ما انتهج لتنظيم أحوال الإيالات المختلفة، وفي إيالة الجزائر كان للتواجد العثماني خاصية متفردة عن باقي الإيالات العثمانية، إذ تعرضت الجزائر للعديد من الاعتداءات الإسبانية والبرتغالية المتكررة على سواحلها، ولم يكن لها الجهد الكافي للدفاع عن ثغورها، لذلك استنجد أهلها بالدولة العثمانية، التي عملت على حماية الثغور الجزائرية من تلك الهجمات، ومن ثم إنقاذ مسلمي الأندلس وتأمين وصولهم إلى الجزائر، نظَّم الحكام العثمانيون بعد أن استتب لهم الأمر أحوال الإيالة المستجدة، وطبقوا فيها أنظمتهم وقوانينهم، كما وضعوا القواعد لدولة قوية في البحر الأبيض المتوسط خلال ثلاث قرون كاملة.

3. صورة الدولة العثمانية في شعر ما بعد سقوط الإيالة:

واكب الشعر الجزائري أحداث سقوط إيالة الجزائر، وكتب عن تراجع قوتها وهجرة الحامية العثمانية التي كانت بها، فانتشرت قصائد الرثاء والبكاء بعد احتلال الإيالة القوية، وصور الشعراء في هذه القصائد صدمتهم من تبدل الأحوال، وعبروا بحسرة وأسى عن انفراط عقد المدينة القوية التي شكلت قوة أسطولها أسطورة تناقلها سكان الموانئ الأوروبية لقرون.

أثار احتلال مدينة الجزائر الأسى والحسرة في النفوس، إذ سقطت المدينة الحصينة في براثن الأسر والامتهان، شكل سقوط مدينة الجزائر بداية مأساة الإيالة؛ فهي أول مدينة يدخلها الفرنسيون، وكان ذلك مصابًا جللاً هزّ النفوس هزًا عميقًا؛ رثى الشعراء مدينتهم التي كانت توصف بالجزائر "المحروسة جيدا"، و"دار الجهاد" لدورها الجهادي في البحر الأبيض المتوسط خلال العهد العثماني.

كتب الشاعر (عبد القادر الوهراني) سنة 1837 قصيدة **"احتلال مدينة الجزائر"**، صوّر فيها حسرته على تبدل أحوالها من مدينة حصينة نجحت في حماية حدودها لمدة ثلاثة قرون إلى مدينة هشّة سقطت في غمضة عين، فبعد أن كان الأوروبيون يخافون سنجاق البهجة (مدينة الجزائر) ويهابون أسطولها القوي، هاهي تسقط في قبضة المحتل الفرنسي الذي قصدها بمئات المراكب، قصد الروم (اسم كل الكفار الصليبيين في المخيال الشعبي) المدينة وهم مصممون على إسقاطها واحتلالها هذه المرة، فقد جهّزوا العدة لذلك جيدًا، يقول (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 36):

الأَيّام يَا إِخْـــــوانِي تبَـــــدّل سَـــــاعَاتَها وَالــــدَّهر يَنْقلَـــب ويْـــولِي فِي الحِـــين
بعْــد كَـــان سَــنْجَاق البَهْجَــة وَوْجَاقْهَــا الأَجْنَـــاس تْخَافْهَـــا فِي الـــبَرَ وبَحْـــرِين
أمْنِـــــــين رَادْ رَبِّي ووْفَى مِيجَالْهَــــــا وأعْطَاوهَــــا أهْــــل الله الصَــــالحِين

الفَرانْسِـــيس حَـــرَكْ لهَـــا وخْـــذَاها لاَ هِـــي ميَـــاة مَرْكَـــب لا هِـــي مِيتِـــين
بَسْـــفَايْنه يفَـــرُص البحَـــر قْبَالْهَـــا كِـــي جَـــا مـــنْ البحَـــر بجْنُـــود قْـــوِيين
غَـــابْ الحِسَـــاب وأدْرك وتْلَـــفْ احْسَـــابْها الـــرُّوم جَـــاوا للبَهْجَـــة مُشْـــتَدِين

وعبّر الشاعر عن حنينه لأيام عز وقوّة المحروسة التي هجروها وهجُروا عنها، وراح يستذكر حال المدينة، ويصوّر في الوقت نفسه ماضيها المجيد وحاضرها المهين، فقد كانت مدينة حصينة تهابها الأساطيل الأوروبية كافّة، ثم يتحسر على دار السلطان وبایاتها الذين كانوا يقطنون بها وعلى القصباجيين والنوباجيين والشواش من الأتراك الذين كانوا يعمّرونها وقد استبدلوا بحكام آخرين، يقول (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 37):

مـــنْ دَرَى عَلَـــى الجَزَائِـــر وَعَلَـــى تَحْصَـــانها وَعَلَـــى وْجَافْهَـــا نَزْلَـــتْ فِيـــه العِـــيْن
حَسْـــراهْ ويِـــن دَار السُّـــلْطَان ونَاسْـــها؟ صَـــدُّوا وجَـــاوا لِيهَـــا اوْجُـــوه آخَـــرِينْ
حَسْـــراهْ ويِـــن بِايَاتْ مَـــع قِيَادْهَـــا؟ يَا مَـــنْ دَرَى عَلَـــى ذُوك القَصْـــباجِيين
مِـــن دَرَى عَلَـــى ذُوك العُصَـــاة مْتَاعهَـــا؟ مَـــــــنْ ذُوك النُـــــــوباجِينْ
حَسْـــراهْ عَلَـــى السَـــرَايَة وَعَلَـــى حُكَامْهَـــا وَعَلَـــى مَوَاضِـــعِ الحُكْـــم المَعْـــزُوزِينْ
حَسْـــراهْ عَلَـــى ذُوك الشَـــوَاشْ طُغْيَانهَـــا حَسْـــراهْ ويـــنْ الأَتْـــرَاك النَصْنَاصِـــينْ

وفي هذه المرثية، يستذكر (عبد القادر الوهراني) الكثير من أحداث التاريخ وتقلباته، فنراه يتحسر على أيام عز وقوّة البهجة، مدينة الجهاد البحري في البحر الأبيض المتوسط، ويقوم هذا الرثاء على مقارنة أليمة بين ماضي المدينة في مجده وقوّته وحاضرها في ذُله وهوانه، حين كانت المدينة مركزًا للجهاد البحري وكان مرساها عامرًا برياس البحر وبالأسرى والغنائم، ويوم كانت المدينة قوية بحصونها ومدافعها المصوّبة إلى جهة البحر، والتي ردّت الكثير من الحملات الأوروبية الخائبة وأهانت أقوى الممالك والأساطيل الأوروبية، ها هو مرساها اليوم عامر بسفن العدو وجنوده، يقول (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 38):

قُرصَـــان دَاخلَـــة للمَرسَـــى قَـــدّاشْ مـــن يَسِـــير مْكتَّـــفْ
للكَـــافِرِينْ كَانـــتْ بَخْصَـــة الأَجْنَـــاس قَـــاع فِيهَـــا تَحْلَـــفْ
منْهَـــا الجُنُـــوس وَلاَّت نْسَـــاء مـــنْ جَـــا يْطُـــل يَمْشِـــي زَاعَـــفْ

شَاعُوا أَخْبارْهَا في الأَيَّام الفَايْتِينْ

نقل الشاعر الجزائري بعد سقوط إيالة الجزائر أحداث الانهزام والتراجع، فرثى البلاد، وكتب عن ضعفها بعد قوتها، ونقل صورا عن تبدل أحوالها وهجرة أهلها وعلماءها، كما ذكر معاناة من بقي فيها من الأهالي، وهو تعبير صادق عمّا حلّ بهذه البلاد من محن وإحن.

ويذهب (أبو القاسم سعد الله) إلى أن الحركة الشعرية الجزائرية عرفت تراجعًا بعد احتلال المدينة وهجرة معظم شعرائها وعلمائها، يقول: "فمنذ وضع الفرنسيون أيديهم على الأوقاف الإسلامية وانهمكوا في هدم المدارس والمساجد

وتشريد العلماء والطلبة، جفل العلماء وخلت حلقات الدرس، وجفت ينابيع المعرفة، بل إن ذلك كان دافعًا قويًا لهجرة عدد من الأدباء وسكوت الآخرين" (سعد الله، 2007، صفحة 193)، ورغم ذلك كتب بعض الشعراء قصائد لرثاء الجزائر "لكن هذه الظاهرة انتهت تقريبا مع بداية الخمسينيات من القرن الماضي، أي مع الجيل الذي كان شاهدًا على وقوع البلاد في براثن الأعداء. وهكذا اختفى أمثال: مُحَمَّد بن الشاهد، والأمير عبد القادر، وابن التهامي، بحلول سنة 1850" (سعد الله، 2007، صفحة 193).

ويقسّم (أبو القاسم سعد الله) تلك الفترة إلى ثلاث مراحل؛ أولاها كانت من بداية الاحتلال إلى سنة 1850م، وهي الفترة التي كتبت فيها بعض القصائد في رثاء الإيالة، وعرفت تراجع الشعر وهجرة العلماء والطلبة، مثل قصائد (عبد القادر الوهراني)، و(مُحَمَّد بن الشاهد)، و(عدّة بن البشير)، كما كتب (حمدان بن عثمان خوجة) صاحب "**المرآة**" في هذه الفترة قصيدة في مدح السلطان (محمود الثاني خان)، سمّاها "**تخيّرتُ محمود المعالي**"، وضمّنها كتابه "**إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء**"، وهو الكتاب الذي أهداه للسلطان سنة 1837م، جاء فيها (خوجة، 1968، صفحة 25):

تخـيّرتُ محمـُود المَعالـي عـلى الكِبَـرْ ... ويـمَّمتُ ساحـَاتِ النـدى راحَـة البشـر
هـو الدّهـر محمـودًا هـو السّعـد طلعَـة ... وأمّـا العُـلا فمبْـلغ الشَّـمسِ والقَمَـر
هنـيئًا للإسـلام دوامُ وجُـودهِ ... يلاَحـظ حَـقّ الله بـالسَّمعِ والـبَصَر
فيَـا مـَلجأ الحَـيْرانِ كهفًـا لعبـدِه ... قَصَـدتُكَ مـنْ أقْصـى أرَاضِـيك بـالْعبَر

كتب (حمدان خوجة) هذه القصيدة وضمنها مقدمة كتابه السابق ذكره، وفيها مدحٌ للسلطان محمود الثاني، وشكرٌ له بعد أن استقبله في اسطنبول بعد أن ضاقت به السبل في الجزائر وفرنسا، وفيها عبّر الشاعر للسلطان عن حالة الضعف التي أصبحت عليها إيالة الجزائر، فكأنه يحاول لفت عناية السلطان إلى حال الجزائر، ويذكر له أنه قد قصده من أقصى أراضيه، وأنه الملجأ والمنجى لرعيته، فكأنه يذكر الدولة العثمانية بدورها تجاه الجزائر، وقد أثبت حمدان خوجة خدمته للقضية الجزائرية ووفاءه لها حتى وهو بين يدي السلطان العثماني، وبقي كذلك حتى توفاه الله في اسطنبول.

أما الفترة الثانية فكانت من سنة 1851م إلى سنة 1880م، وهي الفترة التي عرفت تراجع الشعر الفصيح أمام الشعر الملحون، ولجأ فيها الشعراء إلى "شعر التوسلات والغوثيات، وما نسميه بالشعر الديني المتجه إلى التصوف والاستسلام للأمر الواقع" (سعد الله، 2007، صفحة 194).

وفي هذه الفترة كتب الشاعر (الأمير عبد القادر الجزائري) عن الدولة العثمانيّة، وصوّر تاريخها، وذكر بطولات سلاطينها، وذلك في قصيدة "**آمن من حمام مكة**"، والتي كتبها في حضرة السلطان عبد المجيد، وذلك عند خروجه من السجن واختياره الإقامة في الآستانة في بادئ الأمر، وللأمير قصيدة ثانية عنوانها "**توسلات ودعاء**"، وكتبها نصرة للدولة العثمانية خلال **حرب القرم** التي دارت بين الدولة العثمانيّة وروسيا سنة 1853م.

واستحضر (الأمير عبد القادر الجزائري) في قصيدة **"آمن من حمامة مكة"** تاريخ الدولة العثمانية، وذلك في مدحه للسلطان العثماني (عبد المجيد)، وصف الأمير السلطان عبد المجيد بخليفة المسلمين وسندهم، والممثل للدين الإسلامي، وحامي حمى الدين، كما وصفه بأمير المؤمنين وقائدهم الذي يتولى قيادة المسلمين وتطبيق أحكام الإسلام وتنفيذها، كما كتب عن أول سلاطين الدولة العثمانية الذين خصهم المولى عز وجل بفضل فتح القسطنطينية، قال (عبد القادر، 2007، صفحة 91):

فَــرْعُ الخلائــف وَابْــن الأَكْــرَمِين وَمَــن ... شــدّوا عُــرَى الــدِّينِ أَرْكَــانًا وأطــلاَلَا
كَــمْ أَزْمَــة فرّجُــوا؟! كَــمْ غُمَّــه كَشَــفُوا؟! ... كَــم فَككُــوا عَــن رِقَــاب الخَلْــق أغْــلالَا
هُــم رَحِمَــة لِبَــنِي الإِيمَــان قَاطِبَــة ... هُــم الوِقَايَــة أســواء وأهْــوالَا
أَنْصَــار دِيــن النَّــبِيّ مِــنْ بَعْــدِ غَيْبَتِــه ... فِي نَصْــرِهِ بَــذَلُوا نَفْسًــا وَأَمْــوَالَا
قَــدْ خَصَّــهُمْ رَبُّهُــمْ فِي خَــيْرٍ مَنْقَبَــة ... مَــا خُــصَّ صــحبنَا بِهَــا قــبلًا وَلَا آلَا
كَــم حَــاوَل الصَّــحْب الآل الْكِــرَام لَهَــا ... وَاللهُ يَخْــتَصُّ مــنْ قَــدْ شَــاء أفْضَــالَا
مَــازَالَ فِي كُــلِّ عَصْــر مِــنْهُم خَلْــف ... يَحْمِــي الشَّــرِيعَة قَــوَّالا وَفِعَــالاَ
حَــتَّى أَتَــى دَهْــرِنَا فِي خَــيْرٍ مُنْتَخَــب ... مِــنْ آلِ عُثْمَــانَ أَمْلاَكًــا وَإِقْبَــالاَ

وعن حرب القرم أيضًا كتب الشاعر الجزائري الشيخ (سيدي مُحَّد بن إسماعيل) قصيدة عن حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا، وهي قصيدة طويلة صوّرت مراحل الحرب، ووصفت المعارك، وكيفية تجمع الجيوش الإسلامية لنصرة الدولة العثمانيّة، جاء فيها (Ben cheneb, 1907, p. 170) :

يا كامِــل العَطَــا فرّحْنَــا ... ببشَــاير النّصــرْ يَا ربِّي
تَبْــرَا تــزُول هــذه المِحَنَــةْ ... علــى المُــومنِين يَا مَرْغُــوبِي
انْصُــر عْــلَام عبــدك أمــير المُــؤمنِين ... عبْــدُ المَجِيــد ناصــرْ ديــن المُخْتَــار
قــامُوا جْنُــود الإسْــلام مَعَــهُ مْسَــبْلِين ... فِي نصْــر دِيــن ربّ تفــنَى الأَعْمَــار
قَــال المَلِيــك عبْــدُ المَجِيــد ... لْعُلَمــةْ المــدن ووزرا
المُوســكو بْحَربُــه قاصــدْ ... هْلاكنَــا بجَيْشُــه كَثْــرةْ
لَبّيْــك قَالَــت أَهْــل السُّــنَّة ... يَا مَلَــك الزَّمَــان الْأَرْشَــد
أَنْــتَ صَــاحِبْ الأَمَانَــة ... وَأَنْــتَ خَلِيفَــة المُمَجَّــد
بِاَللَّه وبالرّســول آمَنَّــا ... وبطَاعــة الأَمِــير المُرشِــد

وعلى الرغم من أن الحرب وقعت بعد سقوط إيالة الجزائر، إلا أن القصيدة تزخر بعاطفة دينيّة وحماسيّة تدعو لنصرة الدولة العثمانية في حربها، وتتحدث عن مساهمة الجزائريين في هذه الحرب، وهي بذلك تترجم الرابط الذي بقي يشدّ الجزائريين إلى دولة الخلافة، وتؤكد على أن الجزائري كان يهتّم بكل ما يربطه بالعالم الإسلامي، ويسعى إلى حجز مكانة ضمنه، لذلك ناصر حروب الدولة العثمانية، باعتبارها كانت في تلك الفترة حاملة للواء الإسلام، وداعية للدفاع عنه.

أما بعد هذه الفترة، أي ما بين سنة 1881م إلى 1919م فقد "برزت الصحف وانتشر التعليم قليلا وسمح بالتعبير المحدود عن خلجات النفس في عهدي كامبون (1891 - 1897)، وجونار (1903 - 1912) في الميادين غير السياسية. وكان ذلك سببا في بروز عدد من شعراء اللغة الفصحى معظمهم من الجنوب. ومن أبرزهم على الإطلاق الشيخ (عاشور الخنقي) الذي كان يعيش في قسنطينة منذ السبعينات ثم انتقل إلى زاوية الهامل للتعليم" (سعد الله، 2007، صفحة 195).

وما يهمنا هنا هو ما كتبه الشاعر الجزائري عن الدولة العثمانية، وفيها وجدنا قصيدة للشاعر (عاشور الخنقي) وهي ترجع حسب (أبي القاسم سعد الله) إلى سنة 1895م، وقد كتبها في مدح السلطان (عبد الحميد الثاني)، وضمّنها كتابه **"منار الأشراف على فضل عُصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف"**، وشعر (عاشور الخنقي) كان "معظمه في غرض واحد، وهو الدفاع عن الأشراف بالحق أو بالباطل" (سعد الله، 2007، صفحة 195) وكان (عاشور الخنقي) على اتصال بالشيخ (أبي الهدى الصيادي) نقيب الأشراف في الدولة العثمانية، والمستشار السياسي والديني للسلطان (عبد الحميد الثاني)، وفي هذه القصيدة التي أسماها **"حسن الأمل في فضل الشرف المجرد عن العمل"** مدح (عاشور الخنقي) السلطان عبد الحميد، كما مدح آل عثمان جميعًا، وذكر تاريخهم وبطولاتهم، واعتبرهم من آل البيت، كما مدح عاصمتهم اسطنبول أيضا (سعد الله، 2007، صفحة 599)، يقول فيها (الخنقي، 1914، صفحة 59):

في حَضَـــرَةِ الأَســـتَانَةِ الغـــرَّاءِ مِـــنْ ... أَعَضْـــاد سُـــلطانِ السَـــلاَطِين الأُخَـــرِ
مَـــوْلى الـــوَرى عَبـــدُ الحميـــدِ حميـــدٌ مَـــا ... شملتْـــهُ ســـلْطنةُ الـــبَرايا مِـــنْ ســـيرِ
أهْـــلُ الخلاَفـــة كـــابراً عـــن كـــابرٍ ... عـــن كـــابرٍ عـــن كـــابرٍ عـــن ذي كِـــبر
مـــنْ آل عُثْمـــان الـــذي جَمَـــعَ الخِـــلاَ ... فَـــة في الـــوَرى فِيمَـــا تجَـــاهر وَاسْـــتَتَر

ويذهب أبو القاسم سعد الله إلى أن "هذا الموقف (السياسي) هو الذي جعل السلطات الفرنسية لا تغفر للشيخ عاشور جرأته، فزجّت به في السجن، ولم يخرج منه إلا بتوسلات وتدخلات. وقد كتب البعض عن ولاء الجزائريين لآل عثمان" (سعد الله، 2007، صفحة 599).

وما يهمّ في هذه الفترة هو الشعر الذي كتب عن تراجع وسقوط الدولة العثمانية، وهذه الفترة لها خصوصيتها، فقد شهدت تصاعد فكرة القوميّة، وما انجرّ عنها بعد أن حاول رجال "جمعية الاتحاد والترقي" في اسطنبول تطبيقها على البلاد العربية، ثم ما ظهر بعد ذلك من ردة فعل من القوميّين العرب للحفاظ على وجودهم

ضمن الدولة العثمانية، وخلال هذه الفترة اهتمّ الشاعر الجزائري بالحديث عن "الوطن وعن العروبة وعن الشرق، كل هذا في إطار الدين الإسلامي، فكثيرا ما تختلط هذه الأمور كلها لدى الشاعر، إذ يتغنى بالوطن ويقرن هذا بالتغني بالعروبة والإسلام مازجًا بين الموضوعات الثلاث، لأنه لا يفرق بينها ولا ينظر إليها باعتبارها قضايا منفصلة، بل ينظر إليها نظرة واحدة، فالوطن والقومية والدين كلها بالنسبة له تعني أمرًا واحدًا، ولعل الحسّ التاريخي هو الذي فرض عليه هذه الرؤية، أو أن الضغط الاستعماري جعل الشاعر يرى رؤية شاملة للتحرر، فالوطن لا يتحرر إلا إذا رجع إلى أصالته وانتسب إلى قومه" (الركيبي، 1981، صفحة 680).

نتيجة لذلك كثرت القصائد التي تتغنى بالشرق، وتؤكّد على تلك الرابطة الدينيّة بينه وبين الجزائر، ويندرج كل ذلك في إطار الوقوف ضد المحاولات التغريبية التي كان يقودها الاستعمار الفرنسي، ومن بين تلك القصائد التي تؤكد على ارتباط الشاعر الجزائري بالشرق قصيدة **"يا شرق"** للشاعر (عمر بن قدور) والذي صوّر فيها ما آل إليه الشرق من تراجع وتقهقر، خاصّة بعد تكالب الغرب على اقتسام الإيالات العثمانية، يقول فيها (الركيبي، 1981، صفحة 682):

يَا شَـــرْقُ، هَـــلْ هَـــذِي المَصَـــائِبُ تَنْجَلِـــي ... أَوْ يَنْتَهِـــي الغَلَيَـــانُ مِـــنْ ذَا المِرْجَـــلِ؟
يَا شَـــرْقنَا حَـــتَّى مَـــتَى نَجْـــنِي المُـــنَى؟ ... أَمْ ذِي المُـــنَى عُنْـــوَانُ مَـــا لَمْ نَعْمَـــلْ؟
إِنْ كَـــانَ حَقُّـــكَ فِي الحَقِيقَـــةِ ضَـــائِعًا ... فَكَمَـــا تضِـــيعُ إِذَنْ حُقـــوقَ الغُفَّـــلِ
صَـــالَتْ عَلَيْـــكَ مَطَـــامِعُ الغَـــرْبِ الـــذِي ... أَرضـــعتَه لَـــبَنَ الترقّـــي الأَكْمَـــلَ

تفاعل الجزائريون مع أحداث الشرق، وخاصّة ما كان يحدث في اسطنبول، وقد "وصل تعلق الجزائريين بالدولة العثمانية، أنه لما رست باخرة عثمانية بميناء الجزائر في عام 1906، صعد على متنها عدد من الجزائريين الذين طالبوا بمجيء السلطان لتخليصهم من فرنسا. غير أن هذه الأحلام سرعان ما تبخرت لما أطاح أعضاء جمعية تركيا الفتاة بالسلطان العثماني في 1909، ومارسوا تمييزا عنصريًا على العرب بفرضهم لسياسة التتريك، كما أن السلطات الاستعمارية سعت جاهدة إلى عزل الجزائريين عن إخوانهم في المشرق..لمنعهم من التأثر بأحداث الدولة العثمانية" (بوشنافي، 2012، صفحة 97).

وظهرت في هذه الفترة العديد من القصائد التي تفاعلت مع التغييرات السريعة التي كانت تحدث في إسطنبول، منها قصيدة **"الحميديّة"** للشاعر الشيخ (مُحَمَّد بن عبد الرحمن الديسي)، وقد عبّر فيها عن ألمه بعد خلع السلطان (عبد الحميد الثاني) سنة 1909م بانقلاب الاتحاديين عليه، وإجباره على تغيير الدستور الذي حدَّ من صلاحياته، يقول فيها (الديسي، 2009، صفحة 99):

ثَنَـــائِي عَلَـــى عَبْـــد الحَمِيـــدِ حَمِيـــدُ ... وَحُـــزْنِي عَلَيْـــهِ ماحيَيَـــتُ جَديـــد
وَوَجْـــدِي بِـــهِ يَحْيَـــا وَشَـــجْوِي خَالِـــدٌ ... وَدَمْعَـــي يَحْكِـــي جَعْفَـــرا وَيَزِيـــدُ
وَمَـــالِي لَا أَبْكِـــي عَلَيْـــهِ وَإِنَّـــهُ ... لِأُمَّـــةِ خَـــيْرِ المُرْسَـــلِينَ عَمِيـــدُ

وحَـامِي حمـى الإِسْـلَامِ بِالبِـيْضِ وَالقنَـا — وَتَـدْبِيرهُ فِي المُعْضِلَاتِ سَـدِيدُ
فِيَـا خَالِعِيـه قَـدْ خَلعْـتُم بِخَلْعِـهِ — قُلُـوب جَمِيـعِ المُسْـلِمِينَ فَبِيـدُوا

وفي القصيدة ينتقد الشاعر صنيعة حزب "الترقي"، ويهاجم فعلتهم بالسلطان عبد الحميد، وبالدولة العثمانية، ويربط بين إطاحتهم بالسلطان وبين تجاسرهم على الدين، يقول (الديسي، 2009، صفحة 99):

خَـرقْتُم سِـيَاجَ الـدِّينِ وَالدَّوْلَـةِ الـتِي — لِسَـطْوَتِهَا صُـمُّ الجِبَـالِ تَمِيـدُ
وَكِـدْتُم بِهَـذَا الخَلْـعِ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ — وَمَـنْ كَـادَ دَيْـنُ اللهِ فَهُـوَ مكيـدُ
تَسَـمَّيْتُم حِـزْبَ التَّرَقِّـي سَـفَاهَة — وَصَـنْعَكُمْ لِلاِنْحِطَـاطِ بَرِيـد
وَمَـا اللَّفْـظُ بِالدُّسْـتُورِ إِلَّا وَسِـيلَة — لِبَـاغِ خَـرَابِ المُسْـلِمِينَ يُرِيـدُ
فَلِلـدِّينِ حَـامٍ مِـنْ سِـوَاكُمْ وَنَاصِـرٌ — وَحَافِظَـة رَبّ تَعَـالَى مَجِيـدٌ

ويستذكر في الأخير ما قدّمه هذا السلطان لخدمة الإسلام، منها الحروب التي خاضها دفاعًا عن الدين، ومنها حربه مع اليونان، كما يستذكر أعماله الإصلاحية كإصلاحه للجيش، ومدّ خط الحجاز، يقول عن ذلك (الديسي، 2009، صفحة 99):

وَسُـلْطَانُنَا قَـدْ كَـانَ أكْـبَرَ مُصْـلِحٍ — لَـهُ عُـدَّة مرْهُوبَـة وَعَدِيـدُ
فَكَـمْ رَتَـقَ الفَتَـق المَهُـول بِعَزْمِـهِ — وَأَعْلَـى مَنَـارَ المُلْـكِ فَهُـوَ مُشِـيد
وَقَلَّـمَ لِلْيُـونَانِ أَظْفَـارَ بَأسِـهِم — وَكَـانَ لَهُـم قَصْـد يَسُـوءُ مَدِيـدُ
وَجَنَّـدَ أَجْنَـاد وَأَسَّـسَ نَافِعًـا — وَنَاهِـيَكُمْ خَـطّ الحِجَـازِ شَـهِيدُ
فَأَعْمَالُـهُ مَبْـرُورَةٌ وقُصُـودُه — وَتِلْـكَ تُنَـادَي وَأَنَّـهُ لِسَـعِيدُ

وذهب (عبد الله ركيبي) إلى أن معظم الشعراء الجزائريين الذين تعاطفوا مع الدولة العثمانية كانوا ينتمون إلى الطرق الدينية الصوفية، وبرّر ذلك إلى أنهم كانوا "أشد تعلقا بالخلافة أو لأنهم لا يعرفون شيئا عن خبايا قصور الخلافة، أو لأنهم ينظرون إليها نظرة تقديس وإكبار دون أن يفرقوا بينها مبدأ دينيًا وإسلاميًا وبين من يمثلها ولو كان طاغيًا، متجبرًا" (الركيبي، 1981، صفحة 685).

وفي سياق آخر كتب الشاعر (محمد اللقاني بن السائح) قصيدة "**النصر العزيز**"، جاء في التعليق عليها أنها نشرت في جريدة النجاح بعد الانتصار الكمالي في واقعة **أزمير**، وقد تناقلتها صحف الشرق الأوسط وحتى جريدة "**الفطرة الغراء**" (السنوسي، 1926، صفحة 33)، وقد كتبها بمناسبة انتصار الجيش العثماني بقيادة (مصطفى كمال أتاتورك) على اليونان خلال حرب الاستقلال التركية، واستحضر فيها بطولات العثمانيين، قال فيها (السنوسي، 1926، صفحة 34):

يَا أُمَّـةَ الْيُـونَان إنَّ جَـزَاءَ مَـنْ — طَلَـب الأُمُـور سَـفَاهَة أَن ينْـدما

فِيمَـــا مَضَـــى لِلتُّـــرْك فِيـــك وَقَـــائِع ... أَكَلَـــت بِهَـــا نَار الحُـــرُوب الأعَظْمـــا
يَا آلَ عُثْمَـــــانَ الكِـــــرَام رَفَعْـــــتُم ... لِلـــــدِين مَجْـــــدًا كَـــــادَ أَنْ يَتَهـــــدَّما
سُـــدْتُم بَـــنِي الـــدُّنْيَا بِأَعْظَـــم حكْمَـــة ... وَثَبَـــات عَـــزَم لِلْمُلُـــوك مُقَوِّمـــا
فَـــأذقْتُم الأَعْـــدَاء شَـــرّ هَزِيمَـــة ... وأريتُـــوهم كَيْـــف تسْـــفَك الـــدّمَا
حَكَمْـــتُم البَـــيْض القَوَاطِـــع وَالقَنَـــا ... والمـــدفع الفتّـــاك حَـــتَّى تَحَكّمَـــا
فَـــاَللَّه نَاصِـــر جَيْشـــه و"كمالـــه" ... وَاَللَّه حَـــافَظ دَينَـــه أنْ يظلمـــا
يَا مُصْـــطَفَى لَـــك فِي القُلُـــوبِ مَحَبَّـــةً ... وَمَهَابَـــة هَيْهَـــات أَن يتصـــرّما
جَاهَـــدْت فِي الرَّحْمَـــان حَـــقَّ جِهَـــادِهِ ... وبـــرزْت فَـــرْدًا للحُـــروب مُيمِمـــا

يمدح الشاعر (مصطفى كمال أتاتورك)، ويستذكر الإصلاحات التي قام بها، منها تجديده للجيش، ودعوته للتقدم ونبذ الخرافات، ويذهب (عبد الله ركيبي) إلى أن هذه الإصلاحات – خاصّة فيما تعلق بنبذ الخرافات ومحاربة الطرقية– هي التي جعلت شعراء الإصلاح في بادئ الأمر يتعاطفون مع مصطفى كمال ويمدحونه، لكنهم ثاروا ضده بعد إعلان قيام الجمهورية وإلغاء الخلافة نهائيا، وتنكره لمظاهر الدين (الركيبي، 1981، صفحة 685).

لاحظنا أن بعض الشعراء الجزائريين أظهروا تعاطفهم مع الخلافة العثمانية حتى بعد صعود الكماليين القوميين، فلم ينتقدوا "الفكرة الطورانيّة" التي جاؤوا بها، وحاولوا من خلالها تتريك العرب في المشرق، وأدى إلى صدام بينهم وبين المشارقة، ربما لأن الجزائر لم تعش تلك المحاولة، وعاشت ما أصعب منها، وهي محاولة الاحتلال تغريبه وقطعه عن دينه ولغته، لذلك بقي وفيًا للخلافة العثمانية حتى بعد صعود الكماليين للحكم وتحييدهم لدور السلطان سنة 1909م، واتّخذ الجزائري من وفائه هذا سلاحًا لحماية نفسه، والدفاع عن وجوده وكينونته الإسلاميّة في وجه المحتل الفرنسي، حتى أنهم لم ينتقدوا – حسب ما وصلنا– فكرة القومية الطورانية التي حاول الاتحاديون فرضها على العرب في المشرق بما أن الخلافة كانت ما تزال قائمة ولو صوريًا، بل نراهم انتقدوا اتجاه الكماليين لفصل الدين عن الدولة، وذلك بعد إلغائهم للخلافة نهائيًا ونفيهم للسلطان، لذلك "فإلغاء الخلافة التي هي رمز الوحدة الإسلامية كانت النقطة التي تفجر منها السخط على الأتراك وعلى القوميّة التركيّة، واعتبر الناس ذلك ردة ونكوصًا بل خروجًا على المفاهيم الدينية" (الركيبي، 1981، صفحة 687).

وفي سياق آخر كتب (مُحَمَّد العيد آل خليفة) عن تاريخ الدولة العثمانية، وذلك في تقريظه لكتاب **"مُحَمَّد عثمان باشا"** لصاحبه (أحمد توفيق المدني)، نشرت القصيدة أوّل مرة في جريدة **"البصائر"** سنة 1937م، وكتب فيها آل خليفة "مقرظًا ومنوها بتاريخ الجزائر ودولة الأتراك" (آل خليفة، 2010، صفحة 283)، وفي القصيدة استحضر الشاعر تاريخ الدولة العثمانيّة، وصوّر أمجادها في الجزائر، وكتب منوها عن دورها في رد الحملات البحرية الأوروبيّة عن

الإيالة، كما صور بسالة الجند العثماني، ودور الحكام العثمانيين في إرساء قواعد الدولة الجزائرية، يقول (آل خليفة، 2010، صفحة 284):

أبْحَــث فَلَــنْ تعْــدَمَ مَــنْ يُخْــبِر	قَــد تَنْشُــر الأَيَّامُ مَــا تُقْــبر
واســتَخبر التّــارِيخَ عَــنْ دَوْلَــة	مَــرَّتْ عَلَــى أجْلائِهــا الأَعْصُــر
كَــانَ لَهَــا فِي أَرْضِ "مزغنّــة"	مُلْــك وَسُــلْطَان بِهَــا يزْخَــر
حَــدِّثْ عَــنْ التُّــرْكِ وَعَــن بَأْسِــهُم	فبأسُــهم فِي الحَــرْبِ لَا يُنْكَــر
مِــنْ كُــلِّ جُنْــدِيّ يَخُــوض الــوَغَى	كَأَنَّــهُ فِي ســاحِها قَسْــوَر
أَوْ قَائِــد راياتُــهُ تعتَلــي	أَو رايِــس أُسطُــوله يمْــخُر
و (الــدّاي) فِــيهِم مُــورِد مصــدر	مَــا يُــورِدُ الــدِّيوَانِ أَوْ يصْــدر

ركّز الشاعر مدائحه على تبيان صفة العدل التي كانت عليها الحكومة العثمانية، كما استحضر صفات القوّة والبأس التي عرف بها ريّاس الأسطول العثماني الذين تسيّدوا البحر الأبيض المتوسط لفترة من الزمن، فدافعوا عن الجزائر، وردوا حملات الأساطيل الأوروبيّة عنها، يقول (آل خليفة، 2010، صفحة 284):

حُكُومَــة الــدِّيوَان دَلَّــتْ عَلَــى	عَــدْلٍ مِــنْ التُّــرْكِ لَهُــم يشْــكر
قَامَــت عَلَــى الشُّــورَى فَمَــا دُونَهَــا	وَآل بِأَمْــر الحُكْــم يَسْــتَأْثِر
قِــف حَــوْل بَحْــرِ الــرُّومِ مستفســرا	فَكَــم وَعَــى الأَخْبَــار مُستفســر
وَقُــلْ لَــهُ مســتطلعًا قُــلْ لَــهُ	هَــلْ تَــذْكُر الأَتْــرَاك هَــلْ تَــذْكُر ؟ ؟
هَــلْ تَــذْكُر (الــريّاس) تعنــو لَهُــم	قراصــن البَحْــر وتسْتَأســر ؟
عَــرْش عَلَــى الــدَّاماء قَــد شَــادَه	مَــنْ لَا يَخَــافُ المَــوْتَ أَوْ يَحْــذَر
جَــرَى الــدَّمُ الأَحْمَــر مِــنْ حَوْلــه	فَكَــاد يَخْفَــى موجَــه الأَخضَــر

ثم يكتب مخاطبًا البحر الذي كان شاهدا على حروب الدولة العثمانيّة، ويسأله أن يحفظ بطولات الأسلاف، ويستذكر بطولة محمّد عثمان باشا الذي كان يشجع الجنود على القتال والجهاد، يقول (آل خليفة، 2010، صفحة 284):

(محمّد عُثْمَــان باشــا) بِــه	يَنْهَــى بِسَــيْف الحَــقّ أَوْ يَأْمُــر
وَيَسْتَشِــير الجُنْــد مستفســرًا	كَاللّيْــث فِي أشــباله يَــزْأر
حُكُومَــة زَهْــرَاء فِي عَصــرِهَا	دَلَّ عَلَيْهَــا كَوْكَــب أزْهَــر

يؤكّد الشاعر على صفة الجهاد التي ارتبطت بالعثمانيين، فقد جهّزوا الجيوش الإسلامية للذود عن حمى الإسلام، ويشير إلى صفات العدل وحبّ الجهاد لدى العثمانيين عامّة، ومحمّد عثمان باشا خاصّة، لذلك ركّز على

السجايا التي تعكس شخصية القائد الإسلامي المجاهد، والتي تمثّلها العثمانيون في حروبهم، فالحاكم العثماني يجب أن يكون مجاهدًا، يسوس أمور الدولة بالعدل، ويعلن الحرب لحماية المسلمين والدفاع عن أراضيهم، وهي الصفات التي تحقّقت في مُحَمَّد عثمان باشا حسب الشاعر.

4. خاتمة:

كان أول ارتباط بين الجزائر والدولة العثمانية في بدايات القرن السادس عشر ميلادي، وانطلقت هذه العلاقة بعقد معنوي ربطه الطرفان اللذان اتحدا لمواجهة المحتلّ الإسباني "فهناك إذن معركة واحدة مستمرّة اشترك فيها العثمانيون والجزائريون على السواء" (سعد الله، 2007، صفحة 198) ولذلك لم يكن الشاعر الجزائري في تلك الفترة بمعزل عن هذه الأحداث التي كانت تحيط بالجزائر، فصوّر حروب الدولة العثمانية داخل الجزائر وخارجها، وكتب عن المعارك، وصوّر أطوارها، ووصف أسلحتها، ومدح قادتها، وهجا القاعدين منهم عن الجهاد، وبقي كذلك حتى آخر حملة بحريّة أطاحت بالإيالة سنة 1830م، وبعد هذا الحادث المفصلي في تاريخ الجزائر، استمرت العلاقات بين الطرفين، وظهرت أكثر بعد لجوء العديد من العلماء والشعراء الجزائريين إلى اسطنبول، وكتابتهم عن السلاطين العثمانيين، وعن حروب الدولة العثمانيّة.

كما يبدو أن العاطفة الدينية التي كانت تربط الشاعر الجزائري بالدولة العثمانية هي التي استمرت تشده إلى عاصمة الخلافة حتى بعد الاحتلال الفرنسي، خاصّة أن هذه العاطفة الدينية كانت الحبل الذي جمع الجزائري والعثماني للدفاع عن أرض الإسلام في مشرقها ومغربها، لذلك استمرت هذه العاطفة متأجّجة حتى بعد الاحتلال الفرنسي، وانطلق منها الجزائري للدفاع عن دينه ومبادئه في وجه الدعوات التغريبية والتبشيرية التي كان يقودها رجال الحملة الفرنسيّة.

تعد دراسات الصورة من أهم حقول الدراسات المقارنة التي تهتم بمعرفة صورة شعب لدى شعب آخر يختلف عنه في اللغة، تهدف هذه الدراسات إلى الانفتاح على الآخر ومحاربة الصور النمطية التي تتشكل بين الشعوب، لذلك جاء هذا المقال لإماطة اللثام عن التفكير السائد نحو الدولة العثمانية وتاريخها خلال فترة زمنية حرجة من تاريخ الجزائر، وذلك لمعرفة مدى تمكن السلطة الاستعمارية من تشويه صورة الدولة العثمانية لدى الجزائريين، كما تنفتح هذه الدراسة على إمكانية تعزيز هذا النوع من الدراسات الذي يساعد في تقريب العلاقات بين الشعوب، ومحاربة الأوهام التي تسللت إلى حقائق التاريخ.

5. قائمة المراجع:

Ben cheneb, M. (1907). La guerre de Crimée et les Algériens. *Reuvue Africaine , 51*, pp. 169-222.

أبو القاسم سعد الله. (2007). *تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830*. الجزائر: دار البصائر.

أحمد السليماني. (1993). *النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني*. الجزائر: دار الكتاب.

الأمير عبد القادر. (2007). *ديوان الأمير*. الجزائر: منشورات ثالة.

ج أو هابنسترايت. (2007). *هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1154ه-1732م*. (ناصر الدين سعيدوني، المترجمون) تونس: دار الغرب الإسلامي.

جلول يلس، و أمقران الحفناوي. (1975). *المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

جمال الدين سهيل. (2010). ملامح من شخصية الجزائر خلال القرن 11ه -17م. *مجلة الواحات للبحوث والدراسات* (13)، الصفحات 137-158.

حمدان خوجة. (1968). *إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

خير الدين بربروس. (2010). *مذكرات*. (محمد دراج، المترجمون) الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع.

صالح عباد. (2013). *الجزائر خلال الحكم التركي*. الجزائر : دار الألمعية للنشر والتوزيع.

عاشور بن محمد الخنقي. (1914). *منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف*. الجزائر: مطبعة الثعالبية.

عائشة غطاس. (2007). *الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار.

عبد الكريم غلاب. (2005). *قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

عبد الله الركيبي. (1981). *الشعر الديني الجزائري الحديث*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

عزيز سامح التر. (1989). *الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

عمارة بوحوش. (1997). *التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

مارمول كربخال. (1984). *إفريقيا*. (محمد حجي، المترجمون) الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

مبارك بن محمد الميلي. (1964). *تاريخ الجزائر في القديم والحديث* (المجلد 3). الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية.

محمد العربي الزبيري. (1985). *مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

محمد العيد آل خليفة. (2010). *الديوان*. الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

محمد الهادي السنوسي. (1926). *شعراء الجزائر في العصر الحاضر*. تونس: المطبعة التونسية.

محمد بن عبد الرحمن الديسي. (2009). *ديوان منة الحنّان المنان*. الجزائر: الجمعية الثقافية للعلامة محمد بن عبد الرحمن الديسي.

محمد بوشنافي. (2012). الجامعة الإسلامية وصداها في الجزائر من أواخر القرن التاسع عشر حتى 1914م. *مجلة الحوار المتوسطي ، 3* (1)، الصفحات 73-83.

ناصر الدين سعيدوني، و المهدي بوعبدلي. (1984). *الجزائر في التاريخ- العهد العثماني*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

وليم سبنسر. (2006). *الجزائر في عهد رياس البحر*. (عبد القادر زبادية، المترجمون) الجزائر: دار القصبة للنشر.

وليم شالر. (1982). *مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر*. (إسماعيل العربي، المترجمون) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

يحي بوعزيز. (2009). *الموجز في تاريخ الجزائر*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.